

التفسير المطول - سورة الروم 030- الدرس (09-14): تفسير الآية 33-38 حالات مرضية يتلبس بها الإنسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الأكارم مع الدرس التاسع من سورة الروم.

حالات مرضية يتلبس بها الإنسان المعرض عن الله:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَانُهُمْ مِنْهُ رَحِمَهُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

سورة الروم

الآن نحن أمام حالات يتلبس بها الإنسان المعرض، ربنا عز وجل يصف لنا هذه الحالات لئلا نقع بها، أو لئلا نتلبس بها، هي حالات مرضية، مظهر من مظاهر البُعد عن الله عز وجل، مظهر من مظاهر ضعف الإيمان، مظهر من مظاهر ضعف اليقين، الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي عامة الناس، الإنسان العادي، أما كلمة (مَسَّ) أحياناً تريد أن تعرف ما إذا كانت هذه المكواة حامية أم لا، تمسها بإصبعك مساً خفيفاً لا ضغط فيه ولا بظء فيه.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ يفهم من هذا أن الإنسان لا يحتمل، يقول لك: كريمة رمل فلم أنم الليل، وهي كلها عشر دقائق، لو كان عشر ساعات، لو كان على أشد! ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ما الذي يحدث؟ الإنسان بفطرته حينما تأتية مصيبة، حينما يقع في مشكلة، يشعر شعوراً ثابتاً لا يحتاج إلى برهان، ولا إلى دليل، أن الله سبحانه وتعالى بيده إنقاذه من هذه الوُرطة، هناك حالات، أناس عقيدتهم إلحادية، ركبوا في الطائرة، فلما مرّت فوق جيوب هوائية، وشعروا أنهم موشكون على خطر كبير، قالوا: يا الله، عقيدتهم إلحادية، إذا الإنسان بفطرته حينما يقع في ضائقة، في مشكلة، أكثر

الناس الذين ينكرون وجود الخالق، حينما تأتيتهم أمراضٌ عضالة يعودون إلى الله، هذه فطرة الإنسان، أي أن كل الأسباب الأرضية تبدو أمامهم مُقَطَّعة.

البطولة أن تعرف الله في الرخاء والشدة:

البطولة أن تعرف الله في الشدة، البطولة أن تعرفه معرفةً صحيحة، حينما يأتي البلاء الشديد تقول: يا الله، جميع البشر من كل الأجناس، والألوان، والمعتقدات إذا داهمتهم المصيبة قالوا: يا الله، هذا شيء ثابت؛ في البحر، في الجو، في البر، في الزلازل، في الأعاصير، في الفيضانات، في الحروب الأهلية، إذا داهمتهم المصيبة قالوا: يا الله، قال: هذا شأن أي إنسان، لو أنه عاد إلى الله عند المصيبة وحينما كشفها الله عنه بقي على إيمانه وعلى استقامته، الأمر طبيعي جداً ومقبول وهذا إنسان طيب.

ما كل إنسان يأتي إلى الله طوعاً، هناك أشخاصٌ كثيرون جداً، بل إن معظم المؤمنين جاؤوه قسراً، موقفٌ جيد وطيب إن جنته طوعاً أو قسراً، ولكن الموقف العجيب، والموقف الغريب، والموقف غير الأخلاقي، أن تأتية كرهاً عند الشدة، فإذا تفضل الله عليك وأزاح عنك هذه الشدة تنسى، وتعزو هذه النعمة إلى غيره، إلى أشخاص، إلى أُنْدَاد، إلى شركاء، هنا المشكلة، إذاً هذه حالة مرضية تصيب الأشخاص البعيدين عن الله عزَّ وجل، حالة مرضية تصيب ضعاف الإيمان، حالة مرضية تصيب من تاهوا في درب الحياة.

﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ الأمراض تأتي بالأم غير مستمرة، يبدو أن الآلام المستمرة لا يحتملها إنسان، ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ تماماً أنت كما تمس المكواة، بأقل ضغط ممكن، وبأقل فترة ممكنة، فإذا أردت أنت أن تعرف ابنك بأن هذه مدفأة، وأن لها خطراً، ماذا تعمل؟ تأتي بإصبعه وتُمسكها بيدك، وتضعها لأقل من ثانية بسرعة شديدة، كي يشعر أن هذه نار، هذا الموقف اللطيف، الرحماني، الهادف إلى تعريف هذا الابن بأن هذه مدفأة وأنها مؤذية.

الله تعالى يسوق للإنسان مصيبة مخففة لعله يعود إلى منهجه و يستقيم على أمره:

ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، إذا أراد الله عزَّ وجل أن يسوق لإنسان مصيبة يسوقها له مخففة، قليلة الوقت والتأثير لعله يعود، وشأن الطبيب أنه كلما قال له المريض: لم أستفد من هذا الدواء يرفع له المستوى، ويضاعف له الكمية، هذا سماه ربنا عزَّ وجل: العذاب الصُّعْد، عندما لا يتأثر هذا المريض بهذا الدواء، يرتفع مستوى الدواء وترتفع شدته.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ الضُّر مطلقاً؛ يا ترى ضر في صحتهم؟ ممكن، ضر في أموالهم؟ ممكن، ضر في زوجاتهم؟ ممكن، ضر في أولادهم؟ ممكن، ضر في أعمالهم؟ ممكن، ضر في دخلهم؟ هذه تكبير شمول، أحياناً تُنَكَّر بقصد أن تنطبق هذه الحالة على كل حالة، أي ضرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، شديدٍ أم خفيفٍ، قريبٍ أم بعيدٍ، يمس الجسم، أو الصحة، أو المال، أو الأهل، أو المشاعر، أحياناً توجد

مصائب مشاعر، توضع في موقف تُهان فيه، ولا تستطيع أن تقول كلمة، يقول لك: بقيت شهر لا أنسى هذا الموقف، هذه مصيبة، ربنا عزَّ وجل حكيم، في صيدليته أدواء كثيرة، كل إنسان يصيبه بمصيبة يهتُرُّ لها.

صاحب المال الكثير لا يتأثر بفقد ماله، هذا كرامته غالية جداً، مصيبة صاحب المال إذا حاد عن طريق الحق، وإذا خالف منهج الله عزَّ وجل، بأعز شيءٍ عليه وهو كرامته، أما هناك شخصُ المال عنده كل شيء وهو فقيرٌ جداً، هذا مصيبته في ماله، العبرة أنها مصيبة، أي أنها تصيب الهدف، من: أصاب يُصِيبُ فهي مصيبة.

﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أنا تذوقت كلمة (مس)، فرحمةً بالإنسان تأتيه مصيبةٌ سريعةٌ وطفيفة، بحيث تدع في نفسه أثراً، أما نحن . هذه كلمة أقولها بدقةً بالغة . من لم تُحدثِ المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر، هو المصيبة، فإذا جاءت مصيبة وقال الإنسان: هذا شأن الدهر، الدهر يوم لك ويوم عليك، إذا عزا هذه المصيبة إلى قلةِ حظِّه، إلى بيئته، إلى سوء طالعه، إلى شؤمه، إلى يوم، إلى رقم، إلى صديق، عالج المصائب معالجةً خرافية، طرح طروحات خرافية، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه، هو المصيبة أكبر.

أقرب اسم من أسماء الله الحسنَى للإنسان هو اسم الرب:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ ضُر أي شيءٌ يضرُّهم، شيءٌ يؤلمهم، شيءٌ يقلقهم، شيءٌ يهتمهم، شيءٌ يوترهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ بحكم فطرتهم، وبحكم طبيعتهم وجبَلَّتْهم والإيمان الذي غرسه الله فيهم حينما خلقهم ﴿دَعَا رَبَّهُمْ﴾ وأقرب اسمٍ من أسماء الله الحسنَى لهذا الإنسان اسم الرب:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2)

سورة الفاتحة

دعوا ربهم، فأقرب كلمة للطفل الصغير كلمة أمي، لكل شيء، لأن أقرب إنسانٍ إليه هي أمه، أقرب اسم من أسماء الله الحسنَى لهذا المخلوق هو اسم الرب، من التربية، يُرَبِّكَ في جسدك، يربيك في نفسك، يربيك في عقلك، يربيك في دينك، يربيك في أخلاقك.

أخ كريم حدثني بقصة، وهو يحدثها للآخرين، فإذا حدثت بها لا مانع: أن جاءه إلى محله أو دكانه شخص ليشتري من عنده حاجة، هو يبيع بالجملة، فلما طلب منه قطعتين أو ثلاثة، رأى في هذا إهانةً له، فرفض أن يبيعه، قال لي: بقيت واحداً وعشرين يوماً ما دخل محلي إنسان، أدبني ربِّي، ربَّاني.

من الشرك أن تعزو الفضل إلى جهة غير الله عز وجل:

إذا الإنسان تأمل كيف ربنا يربي الإنسان، إذا قال أنا، يربيه، إذا عزا نعمة إلى غير صاحبها يربيه الله عز وجل، إذا تكلم كلمة غير لاثقة يربيه الله عز وجل، لذلك بعض العارفين بالله قال: أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، وأحياناً من مركبته، وأحياناً من علاقاته العامة، فربنا عز وجل يربي، هذه: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ يا رب، يا جبار الخواطر، يا رب ليس لي غيرك، يا رب ليس إلا أنت، كلمات لطيفة جداً، عند الشدة، عند المرض العضال، عند فقد المال كله، عند مصيبة كبيرة، شيء جميل، موقف رائع، وموقف طيب، أن تدعو ربك عند الشدة، لكن المشكلة في هذه الآية، أن هذا الإنسان حينما داهمته الشدة، وحينما أهدقت به المصيبة، وحينما نزلت به الكارثة قال: يا رب، بكل قلبه، بكل جارحة من جوارحه، بكل خلية في جسمه، أما الموقف الذي يُعْتَصِرُ القلب له يوم القيامة:

﴿ثُمَّ إِذَا أَدَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ هنا الرحمة بمعنى كشف هذه الشدة، كشف هذا الضر، التحليل نتيجته سليمة، ورّم عادي، التهاب السحايا عند ابنه مرّ بسلام، الخطر الكبير مر بسلام، زال الخطر، العلاقة المتوترة مع رئيسه في الدائرة انتهت، هذه المشكلة صُعُفَت، البضاعة وصلت، البضاعة خُلِصَت، البضاعة بيعت، هذا الدين حُصِل، هذه القضية انتهت، هذا الشح للمصيبة زال: ﴿ثُمَّ إِذَا أَدَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ هنا المشكلة، يقول لك: هذا الطبيب ممتاز، بوصفة واحدة شفي ابني، فأين الله؟ نسي الله عز وجل، هذا المحامي بارع، يا أخي القصر العدلي كله بيده كالخاتم، حينما نجوت من هذه الدعوى، والحكم ربحته بفضل هذا المحامي فقط ونسيت الله عز وجل، هكذا كلما أزيح عن كاهله همّ، أو غمّ، أو معضلة، أو مشكلة، أو مصيبة، أو نازلة عزاها إلى ما سوى الله، هذا هو الشرك بعينه، بالمناسبة هذا لا يمنع إذا جاءك خير من إنسان أن تشكره، وأن تبالغ في شكره، وأن لا تنسى له فضله، هذا من شأن المؤمن، ولكن لا يعني هذا أن تنسى فضل الله عليك، أن تنسى الذي سخره لك، أن تنسى الذي سمح له أن يقدم لك هذه الخدمة، هنا المشكلة، فإذا جاءه خير، جاءتة نعمة، أزيحت عن كاهله هذه المصيبة عزاها إلى جهة غير الله عز وجل.

صلاة الشكر هي الموقف الذي يبيّض به وجهك أمام الله عز وجل:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ كلمة (ثم) هذه على التراخي، تأتي المصيبة فالإنسان يظن أن ليس لها حل، هي القاضية، هي التي تنهيه، هذا هو وهم، وهذا من الشيطان، ثم الله عز وجل يدع هذه المصيبة جاثمة على قلب الإنسان ليتمتحن إيمانه، ليتمتحن ثقته بالله، ليتمتحن حُسن ظنه به، (ثم) على التراخي، ثم يأتي الفرج، تُحَلَّ المشكلة، يشفى المريض، يعود المال، تتجو البضاعة، يخرج من السجن: ﴿ثُمَّ إِذَا أَدَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ دقة القرآن رائعة لم يقل: إذا هم، لا، بل قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ هناك أشخاص يبدؤون إيمانهم بالله عز وجل عن طريق الشدة، فإذا زالت عرفوا الله فضله، وعرفوا الله نعمته، وعرفوا الله أطفه، وعرفوا الله رحمته، وذاابوا شكراً، وقد علمنا النبي عليه

الصلاة والسلام صلاة الشكر، إذا جاءتك نعمة، إذا نجوت من مصيبة، إذا نجحت في امتحان، إذا أزيح عن كاهلك مُصاب، مباشرةً تَوْضاً وصلّ ركعتين شكراً لله عزّ وجل، هذه صلاة الشكر، إذا صلّيت صلاة الشكر فقد وقعت الموقف المُشْرِف من الله عزّ وجل، الموقف الأخلاقي، الموقف الذي يبيّضُ به وجهك، قال: ﴿ثُمَّ إِذَا أَدَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعزو لك هذا الخير إلى زيد أو عبّيد، أو إلى ذكائه أو إلى خبرته، أو إلى صحوته أو إلى يقظته، أو إلى كياسته، يتقنن، أو إلى فلان المحامي، أو الطبيب، أو فلان صديقه الحميم له مركز قوي، اتصل به بالليل فأنجده، نسي الله عزّ وجل.

اللام في كلمة (ليكفروا) لام الأمر وهي أمر تهديد أي اكفروا وأنا سأحاسبكم:

إياكم أيها الإخوة الأكارم أن تقعوا في هذا الخطأ، إذا جاءت مشكلة وأزاحها الله عنك قل: يا رب ليس إلا أنت، لا إله غيرك، أنت الذي أنقذتني، أنت الذي كرمّنتني، أنت الذي عفوت عني، أنت الذي رحمتني، أنت الذي لطفت بي، أنت جعلت لطفك عن طريق زيد أو عبّيد، سخره لك، عليك أن تشكره، وأن تُبالغ في شكره، وأن تقابله بعملٍ طيب من دون أن تنسى الله عزّ وجل، هو الأصل، هو الأول والآخر.

الآن كلمة (فريقٌ منهم) هذه مُبَشِّرَةٌ، فما كل إنسان تأتيه مصيبة ويتوب ينسى فضل الله عزّ وجل، بعض الناس، لذلك من عرفني في الرخاء عرفته في الشدة، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، قال:

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

سورة الروم

من أوجه التفاسير أن هذه اللام لام الأمر، أي اكفروا، هذا اسمه أمر تهديد، كأن يقول الأب لابنه: افعّل أنا سأريك، هذا ليس أمر في الحقيقة، سمي هذا الأمر أمر تهديد، أنتم هكذا؟ إذاً اكفروا، وأنا سأحاسبكم ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعم، من عطايا، من إكرام، من لطف، من رحمة.

المتعة مؤقتة ومحدودة لمن كفر ووجد:

قال تعالى:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ التمتع محدود، سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان كلما دخل دار الخلافة، يقول:

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يُمَتَّعُونَ (207)

سورة الشعراء

المتعة مؤقتة، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى ذكّر في قصة سيدنا إبراهيم أن سيدنا إبراهيم دعا ربه فقال:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

سورة البقرة

فقط المؤمنين: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ربنا عز وجل رد عليه قائلاً: ﴿قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

البطولة من يضحك أخيراً:

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا البطولة في
الذي يضحك أخيراً، لا الذي يضحك في أول الأمر، في الذي يضحك أخيراً:
إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمِنًا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109)
فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ
هُمُ الْفَائِزُونَ (111)

سورة المؤمنون

إذا هنا (ليكفروا) أمر تهديد: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ لكن يوجد سؤال: (ليكفروا) خطاب
للغائب، (فتمتعوا) الكلام للمخاطب، هذه ظاهرة في البلاغة اسمها التفتات، هذا الالتفات دليل تحريك
النفس، أحياناً يقول إنسان لشخص أمامه، ويخاطب شخصاً آخر يقول له: قل لفلان إنني غاضبٌ منه،
لتحريك وجدانه، لتحريك شجونه، لتحريك قلبه، قل لفلان إنني غاضبٌ منه، فجاء مرة بصيغة الغائب
ومرة بصيغة المخاطب.

من كفر بالله تعالى سيحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعضهم قال: هذه لام العاقبة لام المآل، ثم
كانت عاقبتهم أنهم كفروا بالله وتمتعوا وسوف يحاسبهم الله حساباً عسيراً.
أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

سورة الروم

هذا الكلام حينما عزوا هذا الفضل إلى غير الله، هل هذا الكلام جاءهم به ملك؟ أو نزل به
عليهم سلطان؟

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي ملكاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي أن هذا الكلام ما
مصدره؟ ما حُجِيَّتُهُ؟ من أين جاؤوا به؟ من علمهم إياه؟ أين قرؤوه؟ الإنسان أحياناً يتكلم كلاماً ليس له

معنى، من دون دليل، وفي الإسلام منهج: إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مُدَّعياً فالدليل، يقول لك: هكذا رأيي، من أنت حتى يُعتدَّ برأيك؟ من أنت؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند؟

هنا: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ هل جاءهم ملك فأوحى لهم، أم هل عندهم حجة قطعية مع الدليل تنطق بموقفهم الصحيح؟

(رحمة) جاءت هنا نكرة للتقليل:

الآن الآية الأخيرة:

وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)

سورة الروم

كذلك الذوق غير الطعام، إذا قال لك أحدهم: ذق لي هذا الطعام، فهل تأكل كل ما في القدر؟ مستحيل، معلقة واحدة، لقمة واحدة، قال: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ يأخذ شهادة، ينسى أن يصلي، يربح بهذه الصفقة، تأتيه سفرة مهمة، تجده قد نسي الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ (أدقنا) تشبه (مَسَّ)، أي شيء قليل، أدقنا، وبعد ذلك (رحمة) نكرة، نكرة للتقليل، قال تعالى:

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)

سورة الكهف

وقال:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

سورة آل عمران

وقال: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ اختل توازنه، قال: فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء.

(إن) تفيد احتمال الوقوع أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

قال تعالى:

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ كان من الذين يرتادون الدروس في المسجد تزوج فانقطع، يقول لك: والله مشغولين يا أستاذ، موسم، الموسم يشغله، والزوجة تشغله، وإذا سافر لمهمة انشغل.

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ هذه (إذا) نقطة مهمة جداً، (إذا) تفيد تحقق الوقوع، كقوله

تعالى:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1)

سورة النصر

أي أن نصر الله لا بد من أن يأتي، أما (إن) تفيد احتمال الوقوع:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ
نَادِمِينَ (6)

سورة الحجرات

(إن) تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع، إذاً: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ الرحمة هي الأصل، جاء معها إذا، الآن الآية دقيقة جداً وهذا كلام خالق الكون، "وإذا" فرحمة الله هي الأصل ولا بد نازلة، هذه رحمة الآن تنزل، أسمعني أحد الإخوة شريطاً لخطبة لأحد علماء دمشق، يقول هذا العالم: يا رب نحن في كانون الأول وكأننا في صيف، في شهر كانون الأول كان كأس الماء مهدداً، ماء الشرب، أعلمني أحد الإخوان الكرام أن مستوى مياه نبع الفيحة ارتفع إلى أعلى مستوى، مع أن الأمطار كلها الهاطلة حتى هذا التاريخ لا تكفي لرفعه لهذا المستوى، فاستيقنوا أن لهذا النبع حوضاً لا يعرفونه من قبل، وهذه رحمة الله عز وجل، في بعض المناطق نزل في أربع ساعات مئة وخمسة مليمترات من المطر، في أربع ساعات، أي نصف ما ينزل في دمشق في المواسم الطيبة، في أربع ساعات.

أي شيء ينتهي عند الموت الفرح به ضعف في التفكير:

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ يفرح بنزول المطر، عنده مزرعة، البئر امتلأ، أو عنده مشروع زراعي انتعش، وإذا لم يكن مستقيماً فرحه خُلبي، كالفرح الذي يقوله الله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ الدنيا من عرفها لم يفرح لرخاء، ربنا عز وجل قال:

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

سورة يونس

المؤمن يفرح برضوان الله، يفرح بفضل الله، يفرح بالعمل الصالح، يفرح بحفظ كتاب الله، بفهم كتاب الله، يفرح إذا الله عز وجل أجرى على يديه عملاً صالحاً، يفرح إذا الله استخدمه، جعله خادماً لعباده، يفرح إذا الله عز وجل جعل حوائج الناس إليه، يفرح إذا كان يحب الله ورسوله، يفرح إذا كان طليق اللسان في ذكر الله عز وجل، هذا فرح حقيقي، أما إذا فرح بالمال فالمال زائل، إذا فرح بالزواج الزواج زائل، أي شيء ينتهي عند الموت الفرح به ضعف في التفكير، ربنا قال:

حَتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26)

وقال:

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)

وقال: ﴿فَبَدَّلْكَ فَلْيُفَرِّخُوا﴾.

آيات من القرآن الكريم على أن فرح الكفار محدود وزائل:

الفرح بالدنيا، قارون، قال:

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ۗ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

وقال:

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)

أما المؤمنون قالوا:

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

ربنا عز وجل قال:

لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۗ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)
لِكِنِ الَّذِينَ اتَّفَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
لِّلْأَبْرَارِ (198)

افرح إذا الله عز وجل سمح لك أن تعرفه، سمح لك أن تذكره، سمح لك أن تجلس بمجلس علم، سمح لك أن تعمل أعمالاً صالحة، سمح لك أن يكون دخلك حلالاً، أن يكون عملك طيباً، أن يكون لسانك طليقاً، هذا فضل الله عز وجل.

الله عز وجل لم يعز الرحمة إلى شيء:

قال:

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ اختل توازنه، صار يقفز، لم يعد يمشي، من فرحه، نسي أن يصلي، نسي الله عزَّ وجل، أحياناً الإنسان بالزواج يندesh، يريد الزوجة، عبدها من دون الله، أمرها هو النافذ، رغبتها هي النافذة، أما المؤمن راسخ في إيمانه، "لمن هذا الوادي؟ قال: هو لك، قال: أتهازأ بي؟! الوادي كله ليس له قيمة عند رسول الله، قال: هو لك."

﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ربنا عزَّ وجل الرحمة لم يعزها إلى شيء، قال: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ الرحمة (إذا)، و(إذا) لتحقق الوقوع.

السيئات التي تصيب الناس محض عدلٍ والرحمة التي تصيب الناس محض فضلٍ:

قال تعالى:

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾ معناها السيئة ليست أصلاً في الأرض، الشر ليس أصلاً، الشر طارئ، الشر له هدف علاجي فقط، فالإنسان يفتح مدرسة، يبني بناء ضخماً، يؤسس المدرسة، ينظم أمورها، ينشئ نظاماً داخلياً، يعين مدرسين، ينشئ ملاعب، ينشئ مكتبة، شيء جميل، وأحياناً المعلم يضرب الطالب، والمدير أحياناً يفصل الطالب، هل نقول: أنشئت هذه المدرسة لضرب الطلاب، لا، هذا الكلام مستحيل، الضرب حادث طارئ، ومرحلي، ولهدفٍ معين، وله هدف نبيل، فربنا عزَّ وجل مع الرحمة جاءت (إذا)، لكن مع المصيبة جاءت (إن)، أي أن الشر احتمالي، إذا حدث انحراف، مرض، كبر، إسراف، عُجب، تطاول، تقصير بالحقوق، شرك، إعجاب بالنفس، يأتي التأديب الإلهي، فالأصل الله نصر المؤمنين ببدر، أما لما قالوا: "لن نغلب من قلة"، قال لهم: قفوا لأقول لكم:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25)

سورة التوبة

هذا الذي لفت النظر، إذا أدقنا الناس رحمةً، لكن تصبهم سيئةً: ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أي لا سيئة بلا سبب.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ لذلك السيئات التي تصيب الناس . دققوا جيداً . محض عدلٍ، والرحمة التي تصيب الناس محض فضلٍ. الرحمة محض فضل، والسيئة محض عدل.

القنوط لا يعرف الله عزَّ وجل أبداً:

الآية دقيقة، أول شيء (أدقنا) أعطيناهم شيئاً من الدنيا، شهادة، كم ألف، أو كم مئة ألف، أو كم مئة ألف، (أدقنا)، زوجة ممتازة، أولاد نُجباء، إذا أدقنا الناس رحمةً فرحوا بها: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أولاً (إن) تفيد الاحتمال، ثانياً السيئة ليست هي الأصل، السيئة شيء طارئ، وهدفها علاجي، وفوق هذا وذاك: ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أي من أفعالهم، من اقترافهم، من كسبهم، من

انحرافهم، من تقصيرهم، هذه الباء للسببية: ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

أي يقنطون من رحمة الله، أجمل ما في الآية، فالنعمة نسيتني من أجلها، والمشكلة بسيطة قلت: أريد أن أنتحر، لا يوجد أمل، ظلمات بعضها فوق بعض، الحياة لا تطاق، حياة كلها متاعب، الله خلقنا للشقاء، إذا كان خيراً سيئاً، علاقة سيئة مع الزوجة، تجده يقول لك: النساء لا يُطَقْنَ، الزواج شقاء، تريث قليلاً، فأنت معها منذ اثنتي عشرة سنة، من أجل مشكلة واحدة أصبح الزواج شقاء! هكذا الإنسان البعيد عن الله عزَّ وجل، سريعاً ما يفرح، سريعاً ما يقنط، فالقنوط لا يعرف الله عزَّ وجل أبداً، ربنا عزَّ وجل يخلق من الضعف قوةً، من الضيق فرجاً، من المرض شفاءً، من الفقر غنىً، من الذلِّ عزاً.

الرحمة وقوعها حتمي أما السيئة وقوعها احتمالي وعلاجي:

قال: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾ أي:

ما من عثرةٍ، ولا اختلاجٍ عرقي، ولا خدشٍ عودٍ، إلا بما قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ، وما يعفو الله أكثر.

الألباني بسند ضعيف

﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يقول لك: المستقبل مُظلم، صار هناك تصحر بالشرق الأوسط، فلا توجد أقطار نهائياً، نحن على مشارف مجاعة، والناس ماتوا من الجوع، وتركوا البلد، وشحَّت المياه بل أصبحت معدومة، وانتهى كل شيء.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ والله شيء جميل، الرحمة من الله محض فضل، والسيئة من الله محض عدل، الرحمة هي الأصل، وقوعها حتمي، أما السيئة ليست أصلاً، وقوعها احتمالي وعلاجي، لكن هذه الحالة المرضية ما حلها، ما شفاؤها؟

الأمر بيد الله عزَّ وجل كن فيكون زل فيزول:

الآية الثالثة:

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

سورة الروم

ما رأوا أن الأمر بيد الله عزَّ وجل، كن فيكون، زل فيزول؟ والله أعرف شخصاً أصابه مرض عُضال، العملية الجراحية لا بد من أن تُجرى في بلد بعيد جداً، كُلفَت العملية قبل عشر سنوات بِقَدْر ثمن بيته تماماً، موظف بسيط عنده بيت سعره ثمانمئة ألف، وعنده أولاد صغار، ومرض عضال، ورم خبيث من الدرجة الخامسة، وأخذت عينات من جسمه إلى إنكلترا، الأطباء قالوا: لا فائدة، والله زرتُه وبكيت عنده حينما رأيت أولاده الصغار، بعد سبعة أشهر تراجع المرض تلقائياً، والقصة منذ اثنتي عشرة سنة، والرجل حي يرزق، في أتم صحته الآن، لم تكن صورة خاطئة فقد أخذوا خزعة، شخص أعرفه كما أعرف

نفسى، وأعرف أطباءه جميعاً، وأنا عشت المشكلة، أخذوا خزعة إلى بريطانيا، والقضية منتهية، فكانت الفكرة أن يبيع البيت ونجاح العملية بالمئة ثلاثين، أين القنوط؟ كن فيكون، زل فيزول،

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)

سورة الشعراء

بالتجارة، وبالزراعة، وبالصناعة، وبالأمراض، وبالعلاقات الزوجية،
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)

سورة الأنبياء

يقول لك: كانت عندي زوجة أصبحت الآن ملك، الله عز وجل أعانك عليها.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء الذين فرحوا لهذه الرحمة فاختل توازنهم وعصوا ربهم، وهؤلاء الذين يسؤوا وقنطوا لهذه السيئة ورأوا أن المستقبل مظلم ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ كل شيء بيده.

الله تعالى يحب الملحين في الدعاء:

هذا الدسام الذي في قلب الإنسان بيد الله عز وجل، الشرايين مسدودة، يفتحها الله إذا أراد من دون عملية، شخص قال لي: كدت أضيق بحياتي ذرعاً، قال لي: لا أملك ثمن عملية القلب، كيف حالك؟ قال لي: والله الآن بخير الحمد لله، تراجع المرض وحده، هذا شيء واقع، هذا يسميه الأطباء: الشفاء الذاتي، الله يتدخل مباشرة.

لا أقصد من هذا الكلام أن أروي لكم قصصاً نادرة، بل قصدي أن تتيقنوا أن الله بيده كل شيء، وأنت بالدعاء أنت أقوى إنسان، وليس بينك وبين الله حجاب، يا رب، يقول لك: لبيك يا عبدي، أسأله كل حاجاتك، أسأله شسع نعلك إذا انقطع، أسأله ملح الطعام، هكذا ورد الدعاء.

مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ

صحيح الترمذي

إن الله يحب الملحين في الدعاء.

البيهقي في شعبه

الله يحب أن تطلب، تترجاه، تعيد وتكرر، تلح كثيراً بالسجود بقيام الليل، أما أمام الناس كن عزيزاً، شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس، البطولة أن تعتز أمام الناس، وأن تمرغ

جبهتك بين يدي الله عز وجل، ادخل لغرفتك وابك وأغلق الباب واسجد وقل: يا رب ليس لي سواك، هذه افعالها، على قدر ما تستطيع تذلل لله، لأن التذلل إلى الله عز، أما مع الناس كن عزيزاً.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

العمل الصالح هو زاد المؤمن في الآخرة:

المهمة الأخيرة:

فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ(38)

سورة الروم

يبدو أنك جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، أول حالة مرضية، وثاني حالة مرضية، والحل أن تُشَمِّرَ وأن تنطلق للعمل الصالح فهو زادك في الآخرة، وهو الذي يسعدك في الآخرة، انظر إلى الآيات وترابطها العجيب: ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لا تكن من هؤلاء، ولا من هؤلاء، وفكر، وافعل هذا.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، واجعل جمعنا هذا جمعاً مباركاً مرحوماً، واجعل تفرقنا من بعده تفرقاً معصوماً، ولا تجعل فينا ولا منا ولا معنا شقياً ولا محروماً، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.